

د. الأخضر شريط

جامعة الجزائر

الحرية بين العقل والنقل في الحضارة "دراسة تحليلية مقارنة."

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة فكرة الحرية التي مافتتت تترامى بين أحضان تارة العقل وتارة أخرى النقل وذلك على مدار الحضارة حضارة الانسان. فإذا كانت الحرية تتبع توجيهات العقل فكيف نبرر فكرة الاستعمار بعد "العقل في التاريخ" الهيجلي؟ وإذا كانت الحرية تتبع توجيهات النقل فهل من تفسير لما آلت إليه الروحانية من شطط وغلو في الدين خاصة من رجالات التصوف الذين عرفتهم كل الحضارات ؟

إن تقصي الحقائق التي تربع عليه التاريخ هو وحده الذي يكشف عن "حرية الاختيار" التي مورست في حلقة من حلقات تاريخ الانسان. وبالمقابل فإن الشعوذة والدروشة هي الأخرى امتهنت مع حلقة تاريخية ما. لكن هل "توقعنت" الحرية على مدر التاريخ نسبيا في التوسط بين العقل والنقل؟ ذاك هو الاشكال الذي تراءت لنا معالجته ضمن الخطوات التالية:

أولا في مفهوم وتطور الفكرة بين حضارتين.

ثانيا النقل في الحضارة والحرية .

ثالثا العقل في الحضارة والحرية

خلاصة تتضمن أهم نتائج البحث. وبالله التوفيق

الحرية بين العقل والنقل في الحضارة "دراسة تحليلية مقارنة."

لما كانت الحرية مجالا مفتوحا من الجانبين: مجال مفتوح من جانب العقل، ومجال مفتوح من جانب النقل. ولما كان كل من النقل والعقل متلازمين تلازم ضرورة، إذ لا يمكن للعقل أن يهتدي إلى غياهب الميتافيزيقا، كما أنه لا يمكن للنقل أن يسير دون عقل في ظلمات البر والبحر. فإن الإثنين عليهما واجبات. كما أن الإثنين عليهما حقوق. الشيء الذي يمكن من التعرف على مجال كل منهما ويرسم حدودا لا ثقة وخاصة به .

ومن هنا فإذا كانت الحرية هي حرية ﴿لا إكراه في الدين...﴾¹ فلقد عرفها البعض بـ "لا إكراه في الرأي"² والفرق والبون شاسع بين التعريفين . وإذا كان البعض الآخر حاول ساعيا من أجل نشر رسالة الجمود العقلي. فإن الدرس الذي قدمه لنا تاريخ القرون الوسطى للكنيسة المسيحية أجدر لنا بالتأمل وأجدر لنا باستفادة الدروس منه .

وإذا كان البعض قد سعى بكل ما يملك من أجل "الانفجار العقلي" في المجال العلمي. فذاك سوف يعتبر من العمل الجبار الذي قامت به "الثورة الكوبرنيكية"³ . لكن الملاحظ أن هذا الفريق كان قد رسم له قاضي القضاة أبا "الوليد بن رشد" معالم الهدى العقلي دون أن يتغافل عن أن "الحكمة هي الأخذ الرضيعة للشرعية". وأن "الحق لا يضاد الحق"⁴.

إن المساحة التي باتت تعرف بمساحة الحرية في الإسلام لا بد من تحديدها تحديدا علميا . ولا يمكن البتة الخوض، في أي من الإثنين أسبق على الآخر. أهو العقل (العلم)؟ أم النقل (الدين)؟

فالمسألة من هنا تأخذ طريقها نحو طرفي معادلة طاماعانت منها أوروبا، خصوصا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر: معادلة طرفيها هما الجحود والجمود . الشيء الذي سيؤثر حتما على تطور المدنية والحضارة في أوروبا.

كما أن تأثير فك لغز هذه المعادلة - وعلى الرغم من أنها وجدت الحل في كل من الجدل الذي دار بين "تهافت الفلاسفة"⁵ و "تهافت التهافت"⁶. لكنها وبتأثير من افرازات القرنين السالفي الذكر (على أوروبا) فإن عهد مابعد "عصر الاستعمار" سوف يفتح القضية من جديد لسبب بسيط هو "المعامل الاستعماري" وما ألحق بفكرة الحرية من تشويه على المستوى الفكري، وعلى المستوى الواقعي، للشعوب التي تعيش - لا سيما - على نحو طابحة جاكارتا، بتعبير مالك بن نبي .

هذه جملة الأفكار التي تدفعنا للبحث عن مكانة الحرية بين هذين الطرفين من جديد.

فما مكانة الحرية بين العقل والنقل في الحضارة؟

وحتى لا يكون بحثنا تكرارا واجترارا سوف نعالج القضية من:
أولا في مفهوم وتطور الفكرة بين حضارتين.
ثانيا النقل في الحضارة والحرية .
ثالثا العقل في الحضارة والحرية
خلاصة تتضمن أهم نتائج البحث

ومن أجل إيفاء هذا البحث شروطه الخاصة سوف نستعين بمرجعية تليق به دون أن نكون عبيدا لها وحسبنا في هذا الصدد التسلح بالأجروية المنطقية في تحليلتنا.

أولا في مفهوم وتطور الفكرة بين حضارتين:

إن المقصود من الحضارتين : الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية المسيحية. وإن المقصود بفكرة الحرية بينهما، هو تتبع مدى التطور الذي عرفته هذه القضية ابتداء من جذور الحضارتين، وانتهاء بواقعهما المعاش على المستوى الفكري وعلى المستوى الأدبي. وكذا على المستوى السياسي، والاجتماعي، وحتى الثقافي والإقتصادي. ونحن لا ندعي في بحثنا هذا المواضيع معرفة كل الحقائق عن هذه الفكرة أي فكرة الحرية على كل هذا الصرح الذي رسمنا خطوطه العريضة. لكننا سنركز كل جهدنا من أجل إبراز الفكرة في هذا المجال الواسع .

لأن فكرة الحرية كما يرسمها الفكر الأوروبي على أيام ميلاد حضارته الأولى: الحضارة اليونانية عرفت تسلسل أنظمة كثيرة من الحكم وفي مقدمة هذه الأنظمة النظام الأورستوقراطي7 والنظام الأوليغارشي8:

الأول على أيام الفيلسوف الذي حاول أن يغري الشباب الأثيني، بمبدأ آخر هو مبدأ فكرة الحرية وهو الفيلسوف سقراط. ذاك المفكر الذي قدم نفسه فداء لهذه الفكرة أي فكرة الحرية، لما لاقى معارضة شديدة من خصومه لا سيما من أولئك الذي كانوا من مفكري الطبقة الأرسطوقراطية مثل أنكسيمناس والسوفسطائيون جميعهم9. ومن هنا فإن فكرة سقراط عن الحرية إنما كانت محاولة منه لمعالجة وضع اقتصادي لوضع سياسي الشيء الذي جعل منه ينسحب من منهج التوليد : توليد الأفكار برمي المنشقة كما يقال ، وعلى الرغم من المجهودات التي بذلها من أجل إقناع خصومه بفكرة الديمقراطية إلا أن هؤلاء لم

يعرفوها في الواقع المعاش أعني ذاك الواقع المرير الذي رسمت معالمه حروب طويلة أتت على الأخضر واليابس أعني حروب أسبرطة مع أثينا . هذه النتيجة آلت إلى أفلاطون ليحاول تقديم الفكرة أي فكرة الحرية من رسم النظام السياسي الجديد الذي نسجت خيوطه الأولى قصة أصحاب الكهف . وبغية ردم الهوة السحيقة بين الإثنيتين أسبرطة وأثينا أبان على فكرة " الجمهورية " التي صنف من خلالها الناس إلى طبقات يحكمهم الفيلسوف الرئيس . وكان لتلك الهرمية التي وضعها للنظام الجمهوري أثر بالغ في تقييد كل في طبقته التي رسمت له : فالفرد من طبقة المزارعين يتمتع بحريته ضمن هذه الطبقة والفرد في طبقة النبلاء يتمتع بحريته أيضا ضمن هذه الطبقة . وأما الفرد في طبقة العبيد فلا يتمتع من الحرية بشيء لأنه موكول إلى كل الطبقات الأخرى التي تحكمه 10 . فهوؤلاء يمثلون الطبقة الدنيا : طبقة ما أطلق عليه كارل ماركس مجازا بـ " طبقة الكادحين " . ولا زم أثينا هذا النظام . لأنه يوقعن النظام الأرستوقراطي ، بل يعطي له حقوقا لم يكن يتحصل عليه ضمن نظام تقسيم المجتمع الأثيني إلى طبقتين : هما طبقة الأرستقراطيين (النبلاء) وبقية الشعب .

لكن خصمهم العنيد أرسطو 11 ركز جهوده من أجل تبيان واقعية الدولة في تلك الحضارة اليونانية من منطلق رسم معالم " في الطبيعة " وردم معالم النظام الأوليغارشي الذي عانى منه طويلا الشيء الذي تسلم من أجل معالجته في الأورغانون 12 .

ومن هنا وجدنا أن الحضارة اليونانية كان مفكروها كتبة بلاط ليس إلا ، في مسألة فكرة الحرية 13 . وهذه النتيجة سوف تؤسس لبزوغ ما عرف بعصر النهضة الأوربي . مع لحمة أخرى وجدنا معالمها مرسومة في الحرية التي نادى بها الكنيسة المسيحية على أيام القديسين من جرجونيوس 14 إلى غريغوار 15 إلى توما الأكويني 16 .

ومع الحضارة الإسلامية ضلت فكرة الحرية تتأرجح بين تباين تيار أصحاب النقل وتيار أصحاب العقل .

في هذا الباب ذهب " أهل السنة والحديث " إلى اعتبار النقل هو الضمان الوحيد للحرية . وبقي الحال على ما هو عليه حتى اعترضهم واصل بن عطاء ، وظهرت فرقة المعتزلة التي تألفت في القول بأن الحرية اختيارا وليست جبرا . بمعنى أن حرية الإنسان تكمن في العبارة الشهيرة لديهم " الإنسان مخير فيما يعلم مسير في ما لا يعلم " 17 .

وقبل مناقشة هذا الرأي في الحرية لابد من تتبع القائلين بفكرة الجبر ومن هؤلاء فرقة الجهمية التي كانت ترمي بثقلها في سبيل توضيح مسألة في غاية من الأهمية في الفكر الإسلامي هذه المسألة هي مسألة أن الإنسان مجبور على أفعاله وهذا الجبر إنما هو وليد " وما تشاؤون إلا ان يشاء الله "

ولقد عرفت فرقة الأشاعرة بنظرية الكسب 18. بمعنى أن الإنسان يكتسب أفعاله فهي تملئ عليه بكرة وعشياً.

وأما فرقة المعتزلة فلقد كانت ترى أن "حرية الاختيار" هي المنجي، وهذه الأخيرة لن تتم إلا من أن الإنسان يختار أفعاله من حسن "التمييز" عنده لما يملك من إرادة من جهة ومن جهة أخرى لما يملك من عقل.

ومن هنا فإنه يمكن اعتبار هاتان الفرقتان، ساهمتا إلى حد كبير في تشكيل الفكر الفلسفي في الإسلام . فإذا ماتبعنا هذا الفكر في الحضارة الإسلامية نجد ممتثلاً للنظرتين المتفاوتتين.

فباتء من الكندي إلى ابن خلدون 19 ، إلى جمال الدين الأفغاني، فالشيخ رضا ومحمد عبده. نجد هذين التيارين سمة الفكر الإسلامي.

فلو عدنا قليلاً إلى البداية لوجدنا أن الكندي مثلاً كانت الحرية لديه تمثل "تأسيس الأيسات من ليس". بمعنى أن العالم كله يتمثل الحرية مادام الإنسان حر حرية كاملة باعتباره النموذج المقتدى به في فكرة الحرية. في «ظل علم الحق والمعرفة والعقل يتفق الدين يرى الكندي أن ذات الله هي وحدته ... والله يتميز بفعل خاص هو الإبداع (أي تأسيس الأيسات عن ليس) وفعل التأسيس هذا لا يتم إلا من خلال فعل اللوغوس (الكلمة) ، فالفعل التأسيسي هذا لا يصدر إلا عن واجب الوجود المبدع لكل ما أتى بعد من الموجودات ومن هنا فإن اختيار أفعال الإنسان واجب عليه العقل 20. (ونحن هنا لا نريد أن نثير مسألة أن الكندي هنا هو ناقل للفكر اليوناني في هذه المسألة أم لا لأن هذا ليس موضوعنا في هذا البحث ، وننبه إلى أهمية اكتشاف النصوص التي تؤكد أو تنفي هذا الزعم سواء كما جاء من مناوئي الحضارة الإسلامية أو من مناصريها).»

ولقد أعطى الفارابي أهمية كبيرة للعقل في تفسيره لآراء أهل الديانة الفاضلة ظاناً منه أن العقل هو وحده الذي يصنع هذه المدينة ومن ذلك كان على رأسها الفيلسوف الرئيس أو ما اصطلح على تسميته بالفيلسوف النبي.

وأما ابن سينا فلقد سار على منوال الفارابي في إرسائه لفكرة الحرية المبنية على العقل ففي نظره فإن العقل من الإرادة وهذه الأخيرة قوى في النفس وهي أعلى مراتب النفس لذا يمكن للإنسان أن يقيم جل أفعاله على أساس من العقل لأنه يتمتع بالإرادة من جهة ومن جهة لأنه بالتالي يتمتع بالحرية 21.

كما لا ننسى ذاك الجدل الذي دار بين "تأملت الفلاسفة" و"تأملت التهافت" حول مسائل ومنها مسألة فكرة الحرية لقد كان الغزالي يريد أن يفند بالعقل مقاصد الفلاسفة الذي سبقوه لما رأى فيهم من شطط ومن مروق عن الدين. ولما رأى فيهم من إنكار لبعض صفات الله. لا سيما منها المتعلقة بالصفات الذاتية. ولأن إنكار واحدة منها معناه إنكار للمنطلق. ومن هنا رسم معالم طريق غير تلك التي خاض فيها الفلاسفة قبله ورأى أن النور الذي يقذف في القلب هو وحده الكفيل بالاتباع وكان له ذلك بعد أن لازم الفراش وبعد ابتداعه للشك كمنهج موصل إلى حقيقة حقيقة لا يعرفها إلا من ذاقها²².

وهو الشيء الذي جعل قاضي قضاة اشبيلية يحاول فك المعضلة من السقوط في غياهب التصوف إلى نور العقل من جديد. اعتبار من أن الحرية كما جاءت في الحق لا تضاد الحق. لأن الحق لا يضاد الحق وبالتالي فلا تناقض بين النقل والعقل وهو الشيء الذي جعله يكتب "فصل المقال لما بين الحكمة والشرعة من الاتصال"²³. وتلك الشهادة انتقل هذا المفكر إلى أوروبا المسيحية عبر الترجمات التي عرفتها كتبه.

كما أن ذاك الجدل سمح لابن خلدون أن يتقصى الفكرة فكرة الحرية من دراسته في "ديوان العبر في تار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" ومن هذه النظرة في التاريخ ومن هذا التأمل في تحليل للأسباب التي بقيام دول واندثار أخرى، اكتشف أن نظرية قيام الدولة إنما يكون على أساس من العصبية. وعلى أساس من الوازع الديني. وأعطى أهمية كبيرة للعصبية باعتبارها اللحمية التي عليها تتوطد عليها فكرة الحرية هذه الأخيرة التي رأى بأنها تتوارى كلما طفا معامل الاستبداد وتتوارى كلما طفا معامل التفسخ الذي يتسرب إلى الدولة في شيخوختها²⁴.

وكان ابن خلدون في وصوله إلى كل تلك النتائج، إنما توصل إليها من ابتداعه للمنهج الجديد الذي عرفه في دراسة التاريخ والإجتماع والعمران البشري ألا وهو منهج علم العمران، أو ما أصبح فيما بعد يعرف بعلم الإجتماع وهو المنهج المعروف بالوصف، والسببية التي- وإن كان فكرة علمية إلا أنها تتناقض مع الجبر-

وهو الشيء الذي أثار حفيضة ابن تيمية الذي راح يعيب على من سبقوه بقولته "نرفع دينانا بتمزيق ديننا... مؤسسا فكرة الحرية هذه المرة على أساس من نقد للفيلسوف اليوناني أرسطو.

لقد نادى الديانة المسيحية بفكرة الحرية على نحو تعاملت فيه مع الإنسان على أنه ضل الله في الأرض: وأن ما يقام في الدولة التيولوجية هو مقيد ومكبل إلى النظام

الإكليريكي الذي عرفته. وبالتالي فلا حركة ولا سكون إلا برخصة من النظام هذا. الشيء الذي جعل مفكره من أمثال القديس أغسطين والقديس غرقوار والقديس توما، يحاولون أن يفكروا للمنهج القويم، الذي رسم معالمة هذا النظام فراح توما الأكوين يصرخ بقولته المشهورة "أنا مسافر في هذا العالم ومحط ترحالي في العالم الآخر". بمعنى أن أي طلب من الحقوق المادية في هذه الدنيا لا قيمة له، وبالتالي لا مكانة له. لا سيما وأن تفسيره لعبارة المسيح عليه السلام أن "الدنيا نمر من الدموع". فسر على أنه لا دار للإنسان في النظام الإكليريكي إلا من ما يمن به هذه الأخير من صكوك غفران. ولم يكن احد من مفكري هذا النظام الذي عرفته أوربا المسيحية إبان القرون الوسطى ولا سيما منهم القرنين العاشر والحادي عشر. وهو الشيء الذي سوف تكون له نتائج وخيمة على النظام في أوربا، 25، مما جعل ماكيفيلي مثلاً وهوبز يحاولان تدوين الأفكار الخاصة بهم: بخصوص هذه الفكرة أي فكرة الحرية. فراح الأول يكتب "الأمير" عليه يفوز بإمارة من الملك الحاكم آنذاك! ويبين من خلاله أن كل ما يقوم به الأمير من أعمال شريرة ومن فساد، أو من أعمال خيرة ومن صنيع جميل مباح له وحده دون غيره. فالعوام أو الدهماء لا تعرف فكرة الغاية تبرر الوسيلة وبالتالي لا يحق إلا للسيد أن يسود البلاد وهونها الأمير 26.

أما الفيلسوف هوبز فلقد قدم مفهومه للحرية من أساس تحليلي للواقع الذي كان يعايشه، وفي مقدمة هذا الواقع الواقع السياسي. فالحرية حينئذ عنده تكمن في ما يتنازل به افراد المجتمع الطبيعي لفائدة أفراد المجتمع السياسي : لأنه بالقوة وحدها يتم تحرير هذا النموذج الأول من عقدة الواجب الأخلاقي إلى الواجب الوطني للدولة السياسية. التي يتحكم فيها "التنين": أي الأقوى. والخلاصة أن القوة هي التي تعمل على تحرير الإنسان تحريره من الطبيعة نحو المجتمع المدني والسياسة. فكلما استعملنا القوة كلما كنا أحراراً والعكس صحيح. وهو مستوى من النيل أو الأفتكاك التحرري بالعقل من ربق سيطرة الكنيسة: سيطرة النقل 27.

وعليه يمكن القول أن فكرتين أساسيتين تشكل على إثرهما الحرية في الحضارة الغربية هما: فكرة القوة، وفكرة الواجب الأخلاقي. وكلا الفكرتين ينموان جنباً إلى جنب منذ عصر النهضة الأوروبي إلى عصر ما بعد الإستعمار. ولكن المتأمل لهذين الخططين يلمس أن فكرة الحرية باتت منتقدة من هذا التيار ومن ذاك. لكن على أساس العقل. وليس على أساس النقل. وهذان التياران هما التيار الذي يبيّن فكرة الحرية في الحضارة على اعتماد مبدأ القوة. ونجده متمثلاً من هوبز، فداروين فنيش، فهيتلر،... فبوش. والحرية عند هذا التيار تبنيتها قوة عقل القوة. بمعنى أن الإستعمال الجيد للقوة. هو وحده المؤهل للتحرر وبالتالي للتمتع بالحرية.

وأما التيار الثاني في الحضارة الغربية فهو ذاك الذي حاول أن يلفظ ويحد من السيف المهند. أي أن يحد من استعمال القوة في التعاملات السياسية، والتحكم إلى العقل. الذي بيده ملكوت كل حيوط التقديس للمعشوقة الحرية.

ومن هنا فيمكن اعتبار العقل الديكارتي ساهم في هذا التوجه، على الأقل على المستوى الفكري. وكذا العقل السبينوزي و..عقل صاحب الفلسفة العقلية النقدية. وهو مبدع فكرة الواجب الأخلاقي. الذي هو منتج من منتوجات الأمر القطعي ذاك الأمر الذي لا ترد له رادة !

إن المجهود الذي بذله الفيلسوف الألماني "كانت" في أسس ميتافيزيا الأخلاق كان بالأساس مجهود تجسيد فكرة الحرية، المبنية أساسا على الواجب الخلقي. أولم يقل في مسلماته

إعمل كما لو كنت تمثل الإنسانية ممثلة في شخصك

إعمل كما لوللقانون الخلقي لديك أن يصبح قانونا طبيعيا عاما

وإذا كان يجب عليك فأنت تستطيع. 28

كل تلك المجهودات التي بناها كانت من أجل بناء العقل الأوربي والضبط الألماني كانت مهزومة. لكن هذه المرة من التيار الخصم العنيد الذي تكلمنا عليه والباقي لفكرة الحرية على أساس الإنسان الأعلى. ولطالما تشكلت محاولات من أجل استعادة الكاتنية على يد كونورسيه ووراسل وغيره. ولكن كان القرن التاسع عشر قد أبان عن "حقيقته الكاملة" فهو عهد الإستعمار، تلك الفكرة التي تتنافى والحرية.

ثانيا النقل في الحضارة والحرية

يقصد بالنقل في الإصطلاح الفلسفي ما يستعين به الإنسان من نصوص، ومن تعاليم مملاة من قوى غيبية. كما أنه يقصد منها كل التعاليم التي جاء بها الأنبياء والرسل والتي تعتمد بالاساس على الوحي. ومنه فيمكن القول أن النقل من الوحي. أو من التشريعات التي توفرت على ألسنة الأنبياء والرسل ومن تبعهم من الناس. والحرية في هذا الحيز وحسب التعاليم الدينية هي تلك المتجلية في كل الأوامر والنواهي التي أمرنا أو نهانا عنهاها الله سبحانه وتعالى . وعندما نتفحص وجود الحرية في مرحلة الروح، سواء تلك التي اتسمت بها الحضارة الإسلامية. أو تلك التي اتسمت بها الحضارة المسيحية. نجد أن أهم ميزة تميزت بها هي وجود النقل. والإعتماد عليه مباشرة .

وعلى محور الزمن يمكن القول أن "النقل" الذي اتسمت به الحضارة الإسلامية كان بداية البدايات فيها. وهو الشيء نفسه الذي عرفته الحضارة المسيحية .

ولنبداً أولاً بالنقل في الأولى: أي في الحضارة الإسلامية. وكيف كان على أيام بدايات هذه الحضارة؟ ثم لنتبع خطواته معها.

أهم سمة طبعت النقل مع هذه الحضارة أنه نقل اهتم بالأساس بترقية الجانب الروحي. كما أنه لم يغفل ولم يتغافل الجانب المادي في الإنسان. غير أن انصبابه كان مهتما فيه بالجانب الأول. الذي قد يكون في بعض التفاسير على حساب الجانب الثاني. ومن هنا فإن الجانب الروحي للإنسان إنما جاء النقل ليحميه من الضلال. وليتبع التعاليم الإلهية أي يتبع الإيمان.

يتمثل ذلك في تعظيم الله لأدم منذ أن نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له . هذا التكريم من الله لأدم جعل الجانب الروحي، كما يقول الفلاسفة جوهر نوراني. وهو النور الذي يشرق في كيان الإنسان كله. ومن هنا باتت الجهود التي بذلها الأنبياء والرسل جميعهم ومحمد صلى الله عليه وسلم منصبة في عبارة الهداية. حتى أن من الأغراض التي جاء بها القرآن هي الهداية ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ 29. والقرآن ككتاب هداية بنحده يركز دائماً وأبداً على تزكية الجانب الروحي في الإنسان. اعتقاد من أن تزكية الجانب الروحي يؤدي بثماره على الجانب المادي فيه. وانطلاقاً من هذه التزكية يتركي المجتمع، ومن ثمة الدولة، فالأمة. أو لم يقل الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا الدَّارَ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ 30 وقال: ﴿...وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ 31.

والنقل في الحضارة الإسلامية تجلّى من مجموعة هائلة من القواعد. ومن السلوكات ومنها قاعدة عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ذاك العمل الذي قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ آخى بين المهاجرين والأنصار. ذاك العمل الضخم الذي ساهم بشكل كبير في تقوية الأواصر بين الفريقين. وهو الشيء الذي من خلاله جعل الحياة الروحية تدب فيهما.

وأما العمل الثاني. فهو العمل الذي قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما أقام بنا المسجد وهو بذلك يكون قد فتح الباب على مصراعيه من أجل توفير أكبر قدر من العالم الروحاني، الذي سيتواصل من جهة. وسيجلى في عمل الصحابة فيما بعد من جهة أخرى.

وأما العمل الآخر الذي تجلّى من خلاله النقل على أيام الصحابة فهو النشأة القوية التي نشأ عليها هؤلاء الرعيل الأول. حتى أن القرآن كان لظالما صورهم في أبيهم وأحسن صورة. لما قال ﴿محمد رسول الله﴾ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله... ﴿32﴾ هذه الصورة إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى اهتمام الرسول والصحابة بالجانب الروحي، جانب النقل. لأنهم كانوا يرونه ضرورة قصوى للحيلولة دون بناء الذات بعيداً عن هذه المعالم: معالم الجانب الروحاني وتقويته. وهي الصورة التي قدمها لنا القرآن في صحابة رسول الله حيث قال ﴿...كأنهم بنيان مرصوص﴾ 33

ولقد باتت الحرية حرية الإنسان تتموقع ضمن مجال الحدود التي رسمها الشارع الحكيم للإنسان. وكل مروق عن الدين لا يجبر صاحبه إلا أن يتمتع بحرية مطلقة، إذ لا حدود لها. فالدين أو النقل يمثل ويمثل الحرية. لما كانت تسبح في فضاء حدود. وبالتالي فحتى التشريع الذي يجري على الإنسان المسلم هو غير التشريع الذي يجري على غير المسلمين. من منطلق ﴿لا إكراه في الدين...﴾ 34

ومن هنا يمكن القول أن حرية الإنسان في الإسلام محصورة بين الواجبات: الأوامر والنواهي وبينهما وبين الباح.

وظلت مرحلة النقل على ماهي عليه في تركية منها للنفس، وللجانب الروحي، حتى حدث ما يعرف في الحضارة الإسلامية بمحادثة أو واقعة صفين 37 هـ

لقد كانت مرحلة ما بعد هذه الواقعة مؤشراً لمرحلة أخرى. وقبل أن نعود إلى هذه المرحلة يمكننا اعتبار ما جاء به الدين المسيحي يشع من سراج واحد. بمعنى أن النقل آنذاك اتسم بالخصائص نفسها التي اتسمت بها الديانة الإسلامية مع فارق في الأثر. حيث أن تعاليم السيد المسيح تعرضت للتحريف من بعض الذين تملقوا على الديانة المسيحية. وعوضوا عبارات نقلية بعبارات تشبهها. وهو الشيء الذي يفسر لنا تعدد الأناجيل إلى أكثر من انجيل. طبعاً بعد وفاة السيد المسيح. وللسبب هذا ولأسباب أخرى تتعلق بالجانب الموضوعي. بالزخم الفكري. ضلت المسيحية تلقن التعاليم في الرقعة الجغرافية التي ولد فيها المسيح، ولم تعرف انتشاراً واسعاً كما عرفه الدين الإسلامي. إلى أن جاء "الظرف الاستثنائي" في التاريخ. والذي تركها تهاجر أو تمارس الهجرة نحو الشعوب الجرمانية 35. وهنا يتم ذاك العمل الجبار أيضاً الذي يقوم عليه القساوسة والقديسين في تنشئة الجيل الذي سيأخذ على عاتقه مشوار الحرية لكن هذه المرة يفسر النقل بالنقل وهو الأمر الذي تم من قبل لكل من القديس أو غسطينوس 36 (354م-430م) توما

الأكوييني وغيرهم لكن الحرية لم تعد تلك الفكرة المحصورة بين الأوامر والنواهي التي جاء بها الدين المسيحي وإنما أصبح مجاله أوسع من ذلك حتى أن القرآن وصف أولئك القوم في الحفاظ على الأمانة فقال "...وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ... 37"

لقد مارست الفكرة النقليّة المسيحية الهجرة نحو الشعوب الجرمانية، نتيجة للإضطهاد التي طالما عانت منه على أيام محنة الرسول بولس. وعلى أيام شارلكان. ولو حتى على أيام شارل الخامس وحتى على أيام شارل العاشر "قلب الأسد". أو فيما عرف بأيام الحروب الصليبية. تلك الحروب التي قطعت العهد على نفسها، من أن عهد القياصرة قد ولى. لكن عهد الإكليروس لا زال قائماً. بمعنى العهد الذي سوف تتبع فيه المسيحية الهيمنة الأخلاقية من- دافع النقل- على أخلاق الآخرين. وبالتالي على حرياتهم. سوف نؤول إلى آئل آخر سوف تعرفه الكنيسة المسيحية: هو محاكم التفتيش. وبهذا الصدد يقول صاحب كتاب الفلسفة في العصور الوسطى: عرف العصر الوسيط ثلاثة أنماط من المدارس: المدارس الرهبانية والمدارس المدنية 'الحضرية' والجامعات ولقد أشير على النمطين الأول والثاني في أمر ملكي capitulaire يعود لسنة 789: وفيه يامر شارلمان بفتح مدارس في كل دير وفي كل مطرانية. أما النمط الثالث وهو الجامعة فسيظهر متأخراً عن ذلك بكثير في القرن الثالث عشر.... لقد كانت "ثمرة ناضجة للمجتمع الإقطاعي" فهي تتلاءم مع البنى التي كانت تتحكم بأوروبا الوسيطة حتى أواخر القرن الحادي عشر ... 38" هذا النص يظهر مما لا يدع مجالاً للشك مدى انتشار النقل على أيام القرون الوسطى من جهة. ومن جهة أخرى، بين تلازم شكل أو نمط البنى التحتية في علاقاتها مع الكنيسة. حتى تصبح من معنى آخر الكنيسة تربي في أحضانها الإقطاع، وهو بالتعريف الماركسي يمثل مرحلة القمع والإضطهاد الإقتصادي والإضطهاد الإجتماعي والسياسي والديني.

وبعد أن يقدم مؤلف كتاب الفلسفة الوسيطة "إدوار جونو" المحاورات التي كانت تدور في صمت كبير بين كبار المفكرين النقليين- والتي يستخلص منها نتيجة مفادها "يبدوا أن الله غير موجود" [مقولة توما الإكوييني] التي تدل تدل دلالة قاطعة على أن "الشخصيات القوية تتحرر دائماً وبقدر مختلف الدرجة من محيطها. ولكن يجب أن يفهم هذا المحيط ولو من أجل معرفة كيفية ذاك التحرر." 39- فإنه يحاول تقديم هذا النوع من الفكر المتحرر من أغلال العقل. ليرتبط هذه المرة بالكنيسة، ارتباطاً وثيقاً، حتى أن هذا الارتباط بشد الإلتباه خاصة لما يتملح الرهبان والقديسين في الكنيسة فلا يجدون من يواسيهم سوى الإكليريكين الذي يقومون عليهم ويقدمون لهم صكوك الغفران. باعتبارهم يلعبون دور الوسائط بين الرب الإله وبين أنفسهم 40.

ومن هنا باتت الكنيسة متحررة من شتى أنواع الحياة العقلية لتغلب النظرة العقلية وظيفتها على أنفس هؤلاء القوم من أناع الكنيسة المسيحية "أن الكنيسة لم تقتصر على هذا، بل طبقت عملياً ما يثبت إصرارها على الطغيان، وحشدت الجيوش الجارية لمحاربة من سولت له نفسه مخالفة آرائها أو اعتنق ما يخالف عقيدتها، ولا نعي بذلك المسلمين أو اليهود، بل الطوائف النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة في قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة.

ومن أوضح الشواهد على ذلك في العصور الوسطى ما تعرض له "الكاثاريون" والوالدونيون الذين لم يتخلوا عن الدين، بل كانوا يطالبون بحياة مسيحية حقيقية، تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه، وأنكروا على الكنيسة ثرائها ودينويتها، ومع ذلك فقد أعلنت الكنيسة الحرب عليهم، وحرّض البابا "أنوسنت" كما يقول ويلز : على حرب صليبية ضد هذه الشيع، وأذن لكل نذل زنيم أو متشرد أقيم أن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر، ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات. ويعلق المؤرخ الإنجليزي على ذلك بقوله:

"القصص التي تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكي لنا من أضرِب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة استشهاد المسيحيين على أيدي الوثنيين، وهي فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لما هو عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها، كان هذا التعصب الأسود القاسي روحاً خبيثاً... يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصري، فما سمعنا أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له، ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطاهم في حنق مقيم ضد من تحدّثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية" 41 .

وفي هذا الصدد يقول دائماً الدكتور سفر الحوالي : "وبفضل هذا الإرهاب البالغ والطغيان العاتي، عاش الناس تلك الأحقاب ترتعد قلوبهم وترتجف أوصالهم عند ذكر الكنيسة، ووقف كبار الفلاسفة والنقاد مبهوتين مطرقين، لا يجروء أحدهم على التصريح بأنه لا يؤمن بالمسيحية مهما كانت آراؤه مخالفة لتعاليمها، ولم يداخل العلماء الأفاضل آنذاك مثل "نيوتن، وبيكون، وديكارت وكانت" أن يعترضوا على عقائد الكنيسة الفجة - لا سيما الثلاثية والخطيئة والاستحالة-، أو على الأقل يجاهرها بمخالفتها، بل يخيّل إلى الباحث أنهم كانوا يعيشون فترة من فقدان الوعي تجاه هذه العقائد رغم نبوغهم في مجالات أخرى، وإن كان للموضوع جانب آخر سنتناوله فيما بعد، إن شاء الله.

يقول برنقن : 'لم يكن بوسع الكثيرين من أفراد المجتمع الغربي أن يعترفوا صراحة وجماعة بالإلحاد أو اللادينية أو بمذهب الاتصال بالله أو بأية عقيدة أخرى غير المسيحية إلا

خلال القرون القلائل الأخيرة، وقد كان الكفار الذين يجاهرون بكفرهم قلة نادرة في الألف سنة التي استغرقتها القرون الوسطى، ولما كان الناس جميعاً مسيحيين فلم يكن هناك مفر من أن تكون المسيحية هي كل شيء لكل الناس، فلقد كان القديس فرانسيس وإرازمس ولويولا وميكافيلي وباسكال ووزلي ونابليون وغلاستون وجون روكفلر جميعاً مسيحيين⁴². وهناك الكثير والكثير من الشواهد على طغيان الكنيسة المسيحية إبان القرون الوسطى لا سيما مع القرون الوسطى لأن أواخر القرون الوسطى شهدت بدايات التحرر من النهق المسيحي. ومن تلمذ بعض القديسين. وبعض القساوسة أنفسهم طغوا وتعتوا حتى مع التعاليم الدينية التي كان يسهر على تطبيقها في جميع مجالات الحياة. ومنها الحياة السياسية، والحياة الاجتماعية، والحياة الثقافية، وحتى الحياة الاقتصادية. وفي أحيان كثيرة تتدخل الكنيسة حتى في الحياة الفردية للأشخاص. والأمثلة كثيرة من هذا المنوال. ومن يرغب في تفاصيل أكثر عليه بمراجع الدكتور الذي ذكرنا .

الحرية والعقل بين حضارتين:

إن العقل الإسلامي أول ما بدا متحرراً في الحضارة الإسلامية ذلك أن هذا العقل كان متحرراً من مما لحق بالفلسفات القديمة. فلقد كان مع حضارة اليونان العقل السوقيراطي الذي تحسى السم لأنه أبل إلا أن ينهي حياته على يده أهون له من أن يكون "شحاذا جميلا عوض أن يكون سقراطا حكيما" فلو تأملنا في هذه الحادثة (حادثة انتحار سقراط) لوجدنا أن سقراط كان يعاني من عدم وجود الحرية التي فرضها أنذاك النظام الأوليغارشي. على كل من أئينا وإسبرطة. وهو الشيء الذي يفسر ما قام به فلاسفة الإسلام من تطوير لفكرة الحرية حتى أن أحدهم ضل يكتب عن ثقافت الفلاسفة متهما إياهم بالكفر. في مسائل عديدة وهو يقصد هنا فلا سفة الإسلام الذين سبقوه، ولكنه ورغم هذا التهافت منه فلقد وجد من فيه ليرده عن غيه ! ويكتب عن "ثقافت التهافت" هذه الكتابة في أوج قوة الفكر الفلسفي في الحضارة الإسلامية. إنما تعرف هنا الروح التي اتسمت بها هذه الحضارة من عدم تضيق للرأي من جهة. ومن عدم التضيق في كل شيء... ومن عدم التدخل من السياسي في الفكري. أو في الثقافي. لذلك وجدنا أكثر من ذلك جل مفكري الإسلام يأخذون من الفلسفة اليونانية ومن الفلسفات التي سبقتهم دون ما يعاقب أحد على فعلته هذه من جهة. ومن جهة أخرى، دون أن يبال أحد منهم بالتدخل السافر لأهل الحل والعقد ..

ولا عجب في ذلك فلقد زكى المسار ذاك الجدل الذي دار رحاه بين المدرستين العريقتين بهذا الشأن مدرسة مدرسة أهل الحديث والسنة والأشاعرة ومدرسة المعتزلة: ألى

كانت الأولى ثم تولدت عنها الثانية. لكننا نلاحظ أن كل ذلك يحدث دوغما تكفير من المدرسة على الأخرى. بل يسمى اعتزالا ذاك الذي ولى شطره "واصل بن عطاء" ليؤسس الرأي العقلي للحرية وأي حرية إنما حرية الإختيار !

إن حرية الإختيار لهي من صميم البحث الفلسفي عند هذه الفئة من المفكرين. والذين هم المعتزلة. إذ ولأول مرة في تاريخ الحضارة الاسلامية يسمح للعقل أن يتطرق لما هو فوقه أو دونه. بمعنى يسمح للعقل في أن يختار بين حرية العقل وحرية النقل. وهو معنى كبير ومتطور جدا في مجال الحرية. حتى غدت هناك مبادئ جديدة يختلف فيها ويتناقش عليها. إنما مبادؤهم (أي المبادئ الخمس للمعتزلة) والتي هي (التوحيد والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعد والوعيد والمترلة بين المترلتين) وهو تطور كما قلنا في مجال مناقشة المسائل التي كانت دوما من الهدي النقلي . بالإضافة إلى ذلك كانت المعتزلة لا تتغاضى عن موضوعات تارة هي من الدين وأخرى هي من الدنيا ففي هذا الصدد يذكر أن معالجة الواقع الاجتماعي والسياسي كان متأثرا إلى حد ما بفكرة المترلة بين المترلتين: التي كانت من ابداعهم. إذ كان في السابق مرتكب الكبيرة يجرم ومع تطور هذا الفكرة أصبح مرتكب الكبيرة في وضع المسلم العاصي.

ومع الفكر المناوئ لهؤلاء كان صاحب الكبيرة فاسق ولا بد من تعزيره والحسن البصري هو نفسه كان يتقلب في فكر حرية الاختيار. وهو المؤسس له غير أنه انقلب عليه رأسا على عقب لما بدا له من أن حرية الاختيار 43 سلكت طريقا آخر غير الطريق الذي رسم لها.

ومن هنا فلم نسمع مع هذا العراك الفكري. تكفير البعض للكل. أو تكفير الكل للبعض. بل وكل ما كان أن هناك مدارس تنوعت وانقسمت على نفسها ، حتى بات الغزالي مثلا أشعريا وأبا الوليد ابن رشد معتزليا ، كما بات علي ابن خلدون أن يشق طريقا آخر يسلك فيه مسلك بين الأشاعرة والمعتزلة إنه هذه المرة النظر في الموجودات المتحركة. وأما الفلسفات فكانت كلها في نظره بلا قيمة، إذالم يفعل فيها البحث عن التاريخ فعله من أجل إقامة علم العمران البشري .

وفي المقابل ظل الفارابي وابن سينا يتنافسان على الريادة في الاختراع في المجال العلمي. الشيء الذي جاء ب "القانون في الطب". وب "البصريات" وب الإسطرلاب وب "سر الأسرار" و... غيرها.

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الحرية كانت قد بلغت شأوها مع الحضارة العربية الإسلامية. وإلا ما كان لقوة العقل أن تتفقت بعقريات من نموذج ابن سينا أو

الفارابي او الكندي من قبلهم أو الرازي أوة حتى جابر بن حيان وابن النفيس وابن ... حتى اكتشاف سر الأسرار من طرف جابر بن حيان وغيرهم كثير.

وقد يقول البعض أن الجو الذي كانت تشهده مكاتب بغداد ودمشق والقيروان وتيهرت وفاس ومكناس... إلى تونباكتوا... كلها كانت دليلا كبيرا وكاملا، على العظمة التي قدمتها الحضارة العربية الاسلامية، للعالم. بتأرجحا تارة على النقل. وتارة أخرى على العقل. ويومئذ فإن التأرجح هذا يدل دلالة قاطعة على أن الروح التي تميز بها هذه الحضارة، ليست إلا الأخذ من هذا تارة، والأخذ من الآخر تارة أخرى . ومن هنا يمكن القول أن هذه الحضارة عرفت التنوع في الأخذ بالحكمة في المتطلبات وفي الأخذ بالنقل في كل الحالات .

وأما عن المكانة التي احتلتها الحرية في الحضارة الحديثة. فإن المجال: أي مجال التحليل يبدأ من المنطلق، أي من منطلق هذه الحضارة. والتي بينا ذلك فيها بما يكفي في الصفحات السابقة. ولكن للتذكير فقط. فإن الحضارة الحديثة هذه اعتمدت على جناح التنكر للنقل. في بداياتها لما اصطدمت الكنيسة مع رجالات العلم. وهو الشيء الذي سيولد إطارا تاريخيا هائلا على المستوى الفكري.

إن الفلاسفة حاولوا أن يجدوا المبررات الكافية لجو الحرية، الذي لا بد لهم به لكي يعايشوه. وهو ما أقدم عليه هيغل الفيلسوف الألماني حينما سعى جاهدا من أجل التعرف على "فينومولوجية الفكر". ووجدها أنها تتميز بالمنطق الجدلي وهو الشيء الذي يتطلب شرط الحرية كحتمية تاريخية وكحتمية لـ "العقل في التاريخ". لكن الحرية من هذا المعنى استعانت بالقول المأثور عن السوفسطائيين القائل: "الإنسان مقياس كل شيء" ومن هنا فلقد باتت فكرة الحرية مع هذا الفيلسوف هي ما يعليه العقل، والعقل الهيجلي فقط. وهو الشيء الذي سوف يفسر المكانة اللائقة بها والتي ترحزت لما وصمت بالروح العنصرية لتكريسها لمبدأ الاستعمار ! (فلقد كان هيغل يبارك احتلال نابليون لبروسيا الشيء الذي أفقدها) أي فكرة الحرية (الروح العلمية لما لم تحقق العمومية. ولكل شيء إذا مات نقصان كما قال الشاعر . هذا النقص حاول الفيلسوف الألماني كانت أن يجد له مخرجا لما انكب على البحث في "أسس ميتافيزيقا الأخلاق"، والذي حاول من خلاله أن يجعل الحرية من اللوازم التي تنتج عن القانون الأخلاقي. لكن قوة البناء الرصين التي أقام عليها كانت مفهوم الحرية هذا جرفته المادية التاريخية، لما لم تسطع أن ترقى إلى فهم ما حدث وما يحدث في عالم النومان الكانتي. أو لم يقال بأن كارل ماركس قلب هيغل على رأسه ! وإذا كان ذلك كذلك، فإن المثالية الهيجلية تتقدم أمام المثالية الكانتية. ومن ذلك

فالحرية مجال يسبح في عالم غير العالم الانساني. لأن الانسان في هذه الحالة مرهون إلى الحتميات الطبيعية الشيء الذي يتناقض وفكرة الحرية.

وباتت الحتميات، حتميات مع المحدثين في الفكر الغربي من ماركس ومن قبله داروين وفرويد ودوركهام... والقائمة طويلة. لكننا نلاحظ أنه مع انتفاء الحرية فلقد تمخض هذا الفكر في الشق العلمي على كم هائل من العلماء، ومن العبقريات.

فيأتري لماذا وكيف يحدث ذلك؟ إن نفي الحرية هنا هو نفي لها بالمعنى النقلي، وليس بالمعنى العقلي. لأنها بهذا المعنى الأخير ضلت موجودة بل ومتألقة. الشيء الذي يفسر ذلك الكم الهائل من الاختراعات ومن الاكتشافات في المجال العلمي. لأن "الطبيعة تخشى الفراغ" ! هذا أولاً.

وثانياً لأن تواجد الحرية أمر طبيعي مع العقل وحده. لكن الغير الطبيعي هو التفریط والافراط في استعمالها مع العقل أو مع النقل. وهو الشيء الذي اهتمت إلى محاولة اكتشافه تيارات فكرية حديثة في الفكر الغربي المعاصر من نموذج الوجودية والشخصانية والغدية... وكل هذه التيارات إنما اهتمت إلى الحرية من جانب تبحث فيه عن المعنى للإنسان في هذا الوجود. لما افتقدته من معاني الحرية، كانت قد تناقلتها لها الأجيال، منذ عصر النقل، أو منذ عصر النقل والعقل.

وبذاك الافتقاد فهي (التيارات الفكرية) تطلبها. أي ان كل تلك المذاهب التي أنشأها "عصر ما بعد الاستعمار" 44، تحاول أن تُنظّر لفكرة الحرية " للمولود الجديد الذي سوف يولد عقب الحربين العالميتين الأولى والثانية" لا سيما منه في أوروبا. غير ان كل تلك المحاولات، سواء تلك التي أقامت الوجودية، أو الشخصانية، أو الغدية، أو ماركسية القرن العشرين، أو حتى المنطقانية، إنما أقامت الدليل على وجود فكرة الحرية أكثر من ممارسة الفكرة في الحياة الاجتماعية أو السياسية أو حتى الاقتصادية والثقافية. الشيء الذي يتأكد من يوم لآخر في الشطط الذي أصاب الشارع الغربي اليوم في أوروبا. ففي الوقت الذي يحجب فيه موعد التعايش السلمي. تنتحر أمريكا في العراق بدافع من الحرية الاقتصادية. وفي الوقت الذي يصحو ضمير أوروبا الغربية من جراء ما اقترفته من آثام في الشعوب المستعمرة يوقض "الإطراد التاريخي" مضاجعها في عماليات مدريد ولندن ومن قبلهما عمليات 11 سبتمبر.

فالحرية أصيبت بردة في عالم متغير على كل المستويات. ردة لأنها احتكمت إلى العقل. ردة لأنها معقدة من عصر النقل المهيمن. وردة أخرى لأنها لم تحتكم إلى الفكرة أي فكرة الحرية لأنها لم تحتكم لا إلا هذا ولا إلى ذاك. وباليته عايشت النقل والعقل معا والحمد لله رب العالمين.

الخلاصة:

- عاشت الحرية مغيبة مع الحضارة اليونانية لأن حروب اسبرطة وأثينا أنهكت الفلاسفة فلم يولدوا سوى الأفكار الجافة.

- تمكن الفكر الإسلامي مع الحضارة الاسلامية من الأخذ بالهدايتين هداية النقل وهداية العقل فأنارا على القرون الوسطى.

- هيمن النقل من الكنيسة الباباوية وبقية الكنائس فاصطدم مع رواد النهضة العلمية في أوروبا. فتولد عن هذا الوضع طلاق بين النقل والعقل. وبالتالي حرمت هذه الفترة تاريخيا من تذوق نعيم الحرية.

حاول عصر التنوير أن يجد مخرجاً للأزمة التي مني بها من الطلاق السالف الذكر لكي يتنفس نعيم الحرية بالعقل وحده. فكانت تنظيراً وتنظيراً بين الفلاسفة لا سيما منهم الألمان خاصة. ولم تعرف "الذات الأوروبية" تذوق فكرة الحرية إلا من خلال عصر الاستعمار !

ظلت فكرة الحرية اليوم مع الحضارة الغربية تعوض ما فاتهما فأنشئت الأفكار والأفكار بعيداً عن النقل. فاصطدمت اليوم مع أحداث 11 سبتمبر وأحداث مدريد وأحداث لندن والقائمة طويلة من أحداث آخرها الاساءات لرسول الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم وما سوف يتولد عنها في المستقبل.

إن فكرة الحرية تجرّ تشبه تماماً التجربة الصوفية فلا يعرفها إلا من ذاقها وتحتاج إلى الهدايتين معا... إلى: "أن الحق لا يضاد الحق". في الحضارة .

ثبت بمصادر ومراجع البحث

- (1) سورة البقرة، الآية 256.
- (2) هذا الشعار لا يؤدي الغرض من مدلول الآية ببساطة لأن الرأي غير الدين للاختلافات المضامينية بين الاثنين ولمصدرية كل منهما .
- (3) الثورة الكوبرنيكية هي ثورة في مجال العلم قامت في أوروبا بزعامة صاحبها كوبرنيك البولوني، وكانت ثورة في علم الفيزياء كما تار غاليليو الايطالي ضد الكنيسة المسيحية في مجال علم الفلك .
- (4) ابن رشد أبا الوليد فصل المقال لتحقيق بين الشريعة والحكمة من الاتصال :أنظر فصل موافقة الشريعة لمناهج الفلسفة على الموقع:
http://ar.wikisource.org/w/index.php?title=%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D8%B1%D8%B4%D8%AF_-_%D9%81%D8%B5%D9%84_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84&action=edit§ion=4
- (5) الغزالي أبا حامد، **تهافت الفلاسفة** ، أنظر الموقع:
<http://www.ghazali.org/works/tahfut.doc> كتاب تهافت الفلاسفة للإمام، حجة الإسلام، أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الطوسي. المتوفى: سنة 505، خمس وخمسمائة.
- (6) ابن رشد أبا الوليد، **تهافت التهافت** ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، 2001ص 213.
- (7) الأرسطوقراطية نظام حكم يقوم على النخبة الذي قد يكون من النبلاء وقد يكون من ذوي الكفاءة ،عرف هذا النظام أول ما عرف عند البوذيين في القرن 6 الميلادي وعرف عند اليونان : وعرف مع النهضة الاوربية ومع الثورة الفرنسية أنظر Aristocratie Encyclopédie libre ,in wikipédia_
- (8) الاوليغارشية نظام حكم سياسي يدار من قبل مجموعة أو فئة من الناس ينفوزون بالحكم بطريق قوة المال أو القوة العسكرية أنظر: le_oligarchie in Toupixionnaire, le_dictionnaire de politique
- (9) أنظر سقراط على الموقع :-<http://www.ac-versailles.fr/pedAGOGI/anti/socrate/socrate1.htm>
- (10) راجع بهذا الصدد: Platon, La république
- (11) أرسطو فيلسوف ومنطقي يوناني (384-322 ق م.)
- (12) الأورغانون هو عنوان مؤلف لأرسطو ويضم 6 أجزاء والأورغانون معناه الآلة وهو العلم الذي يهتم بالطريقة لمعالجة المعارف والعلوم .

13) تقول كوليت كالمون وإيزابيل ديديرجون. Colette Calmon et Isabelle Didirgeon. عند تطرقهما للسياسة في كتاب الجمهورية وكتاب القوانين لأفلاطون في عنوان :

La philosophie Grecque, Aperçu des origines a la fin de l'époque classique
إن أفلاطون يتعد عن المدينة المثالية في هذا المؤلف الأخير (تقصد القوانين) كي يحدد الشروط الممكنة التطبيق لنظرياته على الواقع - ثم تتساءل هل بالامكان رؤية علل العفن المتسبب في أعمال اللاعدل للديمقراطية الأثينية والتي في جوهرها كانت قادرة على أن تضمن الحرية ؟ مما يؤيد كلامنا السابق وهو نفي الحرية حتى على فلاسفة اليونان الذين اشتهرت بهم الحضارة اليونانية . لمزيد من التفاصيل أنظر الموقع :
<http://www.ac-orleans-tours.fr/hist-geo-grece/themes/philo.htm>

14) جورجينيوس Gorgonius توفي في 304م لتفاصيل أكثر أنظر : Oxford Dictionary of Saints (Oxford, 2004)

15) غريغوار الأول Grégoire 1^{er} 540-604 م بابا الكنيسة الرومانية في 590م.

16) فيلسوف ولاهوتي إيطالي 1225-1274م

17) محمد عابد الجابري الفكر الإسلامي ودراسة المؤلفات ،، دار النشر المغربية: الدار البيضاء 1969. ص 89.

18) المرجع نفسه ص 85.

19) أنظر موسى الموسوي، من الكندي إلى ابن رشد، طبعة بيروت 1972.

20) أنظر الموقع:

<http://www.allogos.netfirms.com/PHILOSOPHY%20%20research%205.html>

21) راجع بهذا الخصوص لأكثر تفاصيل رمزي نبحار الفلسفة العربية عبر التاريخ، دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى 1978. ص 150-151

22) لتفاصيل أكثر راجع هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة نصير مروة وحسن قيسيمنشورات عويدات بيروت 1966

23) أنظر ابن رشد أبا الوليد فصل المقال لتحقيق ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، الشركة الوطنية للكتاب الجزائر 1980.

24) أنظر الأخضر شريط في التطور التاريخي والحضارة، فصل فكرة التريخ عند ابن خلدون، الجديدة، المغرب 2008

25) لتفاصيل أكثر أنظر: إبراهيم حداد، الحرية عند العرب - فصل الاستبداد في العصور الوسطى - دار الثقافة بيروت بدون تاريخ ص 106.

- 26 (لتفاصيل أكثر راجع نيقولا ميكيافيلي، الأمير، HARALD HÖFFDING, "Histoire de la philosophie moderne", tome I, Paris, Félix Alcan éditeur, 1906.
- 28 لتفاصيل أكثر راجع كانت إمانويل ، أسس ميتافيزيقا الأخلاق .
- (29 سورة الإسراء الآية 9.
- (30 سورة الأعراف الآية 169.
- (31 سورة القصص الآية 77.
- (32 سورة الفتح الآية 29.
- (33 سورة الصف الآية 4.
- (34 سورة البقرة الآية 256.
- (35 لتفاصيل أكثر يراجع مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1982.
- (36 أ وغسطينوس (354-430): يعتبر من بين الآباء الذين قرأهم العصر الوسيط. والقديس أوغسطينوس هو الذي بدون منازع مارس التأثير الأعماق إنتاجه ضخمة (أكثر من مأتي كتاب وأكثر من خمسمائة موعظة وثلاثة عشر بحثا يشكل موسوعة حقيقة داخل الثقافة المسيحية ومن بين كتاباته التي قرأها العصر الوسيط يمكن ذكر: «الإعترافات»، «في العقيدة المسيحية». «في الثالث». «مدينة الله». «وشروحات» على «المزامير» وعلى «إنجيل متى». لتفاصيل أكثر أنظر: إدوار جونو، الفلسفة الوسيطة ترجمة علي زيعور دار الأندلس للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 1979 ص 31.
- (37 سورة الحديد الآية 27
- (38 إدوار جونو، الفلسفة الوسيطة . ص 45.
- (39 المصدر نفسه ص 47
- (40 يراجع بالتفاصيل محمد قطب الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق القاهرة 1980.
- (41 موقع الشيخ الدكتور سفر الحوالي * كتب ومؤلفات * العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة * الفصل الأول: الطغيان الكنسي:
- <http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&contentID=26#9990081>
- (42 أنظر الموقع نفسه .

- (43) لتفاصيل أكثر يراجع علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار الكتب العلمية.
- (44) عصر الاستعمار هو القرن التاسع عشر وعصر ما بعد الاستعمار هو الثلث الأخير من القرن العشرين.